الضمير الجمعي الفلسطيني

د. حسن البرميل*

* أستاذ مساعد في علم الاجتماع/ فرع بيت لحم/ جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين.

ملخص:

تناولت هذه الدراسة محورين رئيسين سبقتهما مقدمة وضحت التأصيل النظري لمفهوم الضمير الجمعي عند كل من إميل دوركايم وشارلز كولي، وعالج المحور الأول مدلولات الضمير الجمعي في النسق الثقافي الفلسطيني، حيث ربط الباحث هذا المفهوم مع بعض مكونات الثقافة كالأدب والمثل الشعبي والشعر والحياة الاجتماعية بمجملها في مرحلة تاريخية مر بها المجتمع الفلسطيني. ووضح المحور الثاني تداعيات الضمير الجمعي الفلسطيني في ظل مرحلة الانقسام التي يمر بها المجتمع الفلسطيني الذي أثر في مجمل التفاعلات الاجتماعية فيه، ولم يكن تأثيره قاصراً على الصفوة السياسية الفلسطينية، بل تعدى ذلك إلى العلاقات الاجتماعية داخل النسق الاجتماعي الفلسطيني.

Abstract:

This study dealt with two main dimensions preceded by an introduction clarifying the theoretical originality of the concept of collective conscience as perceived by Durkiem and Charles Colley. The first dimension tackled the implications of the collective conscience in the Palestinian cultural system. The researcher linked this concept with some cultural components such as literature, popular proverbs, poetry and social life in its entirety within a historical period, which the Palestinian society experienced. The second dimension clarified the decline observed in the Palestinian collective conscience under the state of division which the Palestinian society is living and which influenced the overall social interactions. This influence was not confined to the Palestinian political elite, but has extended to the social relationships within the Palestinian social system.

مقدمة:

يعود التأصيل النظري للضمير الجمعي إلى عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم، حيث ظهر هذا المصطلح في كتابه **تقسيم العمل الاجتماعي «The Division of labor in Society»**، ويعرّفه على أنه المجموع الكلي للمعتقدات والعواطف العامة بين أغلب عناصر المجتمع، والتي تشكل–في رأيه– نسقاً له طابعاً مميزاً، ويكتسب هذا الضمير العام واقعاً ملموساً، فهو يدوم خلال الزمن، ويدعم الروابط بين الأجيال، ومن منظور هذا العالم فإن الضمير الجمعي هو تعبير عن فكرة الجماعة بين المجتمع. (عامر، ٢٠٠٩، ٢٥).

ويؤكد دوركايم أن الضمير الجمعي يعيش بين الأفراد ويتخلل حياتهم، إلاّ أنه يكتسب مزيداً من القوة والتأثير والاستقلال حينما يتحقق نوع من التماثل الواضح بين أفراد المجتمع، ذلك أن الضمير الجمعي يعد نتاجاً للتماثل الإنساني، ولعل هذا الموقف السائد في المجتمعات التقليدية التي تتميز بالتضامن الآلي، حيث يسيطر هذا الضمير العام على عقول الأفراد وأخلاقياتهم، و يتحقق لكل فرد ضميران، **الأول**: هو الذي تشارك فيه الجماعة(الذي تعبر عنه فكرة «المجتمع يعيش بداخلنا») وهذا التصور يماثل إلى حد بعيد النظرية السائدة اليوم، والتي تعبر عنها **فكرة استدماج الثقافة «Internalization of culture»**، **والثاني**: خاص بالفرد ذاته، وحينما يسود التضامن الآلي في المجتمع تتجلى فعالية القوى الجمعية واضحة فيما يثيره انتهاك نظم الجماعة من ردود فعل قوية، وهنا نجد تعبيراً قوياً للقهر الاجتماعي يتمثل في سيادة القانون الجنائي القائم على العقاب الرادع من أجل تدعيم التضامن الآلي. (تيماشيف، ١٧٣: ١٩٨٠) .

وهكذا يُعدُّ المجتمع من وجهة نظر دوركايم المؤتمن الوحيد للمعرفة الموضوعية، أي أن التمثلات الجمعية تشكل الخطاب الذي من مهماته تمرير المعرفة نحو أفراد المجتمع، كيفما كانت طبيعة هذا الخطاب سواء كان قهرياً أم تراتبياً، وهذا ما يبرر ظاهرة الحتمية المجتمعية التي يُقّر بها دوركايم في تفسيره للمجتمع ككل ولأعضائه المنتمين إليه، باعتباره إطاراً مرجعياً يعود له الأفراد الاجتماعيون لبناء الحقيقة وفهم ما يجري في أوساطهم الاجتماعية، ويهدف حسب وجهة دوركايم إلى تشكيل ما يسميه بالضمير الجمعي كشكل من الاستشراك في التصورات والأنساق الاجتماعية الأساسية والقيم السائدة(الدين، القانون، الأخلاق) المستقلة عن التصورات الفردية، وبذلك ينتقل الضمير الجمعي في المستوى السيكولوجي للجماعة إلى عالم الأفكار المتداولة بين الجموع عبر تمثلاتهم لهذه الأنساق الاجتماعية الممارسة في الواقع الاجتماعي، و يُعدُّ الضمير الجمعي في هذا السياق

الفاعل الجمعي الوحيد في شكلنة وبنينة التمثلات الجمعية، كما هي ممارسة اجتماعياً من طرف المجتمع كمنظم لها. (المباشري، ٢٠٠٩، ٣٦) .

ويظهر الضمير الجمعي في كتابات «كولي» جلياً في رؤيته للجماعة الأولية، ويُعدُّ «كولي» أول من وضع هذا المصطلح، وقد عرّفها على أنها تلك الجماعة التي تتصف بعلاقات حميمة، علاقات الوجه للوجه، وهي جماعية وتعاونية، وهي أولية عبر معان عديدة أهمها: أنها أساسية في تكوين الطبيعة الاجتماعية للفرد، إذ تؤدي نتيجة العلاقات الحميمة نفسياً إلى ذوبان الفرد في الكل المشترك، مما يجعل ذات الفرد على الأقل و لأسباب عدة جزءاً من حياة الجماعة، وأسهل الطرق لوصف هذا التوحد هو القول ب «نحن» التي تنطوي على التعاطف والانتماء المتبادل، حيث يصبح فيه تعبير «نحن» تعبيراً مشتركاً فيعيش الفرد هنا في شعور الكل، و يجد الهدف الأساسي لإرادته في هذا الشعور. (Cooley,1968)

ومن خلال ما ورد آنفاً، نرى أن الكتابات السوسيولوجية قد زخرت بالمخططات والمشروعات التي تستهدف تصنيف العلاقات الاجتماعية، وهي تتباين فيما بينها تبايناً كبيراً من حيث(درجة التعقيد والدقة والشمول) ، وربما كان أفضلها جميعاً محاولة «كولي» التمييز بين العلاقات الأولية والثانوية التي بيّنا آنفاً رؤيته للعلاقة الأولية. (الجوهري، ١٩٩٤: ٢٤٨) .

ويعتقد الباحث بأن المخزون الثقافي الذي يعبّر عنه الأفراد في النسق الاجتماعي بهيكلية الضمير الجمعي وتشكيلاته التي تبين حدود المعقول واللامعقول اجتماعياً، وفق أطر الضبط الاجتماعي التي تبناها البناء الاجتماعي من خلال مستويات واضحة ومحددة. وأن تشكيلات الضمير الجمعي وعناصره تمتاز بالثبات لارتباطاته العميقة بالدين والفكر والثقافة، والأدب والتربية، يجتمع الأفراد حال الاتفاق، ومن خلاله يفترق هؤلاء في حالة التباين والاختلاف. وفي الحالَيْن يبقى الضمير الجمعي هو الموجّه الحقيقي والصادق لسلوك الأفراد والجماعات، ويُعدُّ الموروث الثقافي الراسخ في ضمير المجتمع متحكماً في منطوق الأفراد ومواقفهم فيها، لأنه يتحكم في عناصر الفعل الاجتماعي وإرهاصاته ونتائجه.

ومن جهة أخرى هناك ارتباط وثيق بين الهوية والضمير الجمعي، حيث يشير مفهوم الهوية في الفلسفة إلى حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره، وتسمى أيضاً وحدة الذات، وتشكل الهوية وعاء الضمير الجمعي بما يتضمن من مكونات ثابتة كالدين واللغة، وغير ثابتة كالعادات، وطرق التفكير، ويتجلى الضمير الجمعي في المجتمع من خلال إحساس المجتمع بهويته، وخاصة إذا ما تعرّض للعدوان، لأنه إذا لم يحافظ على هويته وتماسكها، فمن السهل على الآخر طمسها، ومن ثم القضاء عليه. (القواسمة، ٢١/ ١١/ ٢٠١٠) .

وعلى هذا النحو سيناقش هذا البحث حالة مجتمعية جديرة بالدراسة ارتبطت بمتغيرات موضوعية وذاتية، داخلية وخارجية أفرزت ضميراً جمعياً ذا صبغة خاصة تشكل من خلال ظروف سوسيوتاريخية استطاعت أن تظهره على نحو ما، بأنه القادر على المواجهة والتحدي، على الرغم مما يحيطه من عناصر تحاول تقويضه وإنهاءه، وأعني به الضمير الجمعي الفلسطيني.

مدلولات الضمير الجمعي في النسق الثقافي الفلسطيني:

إن الحديث عن مسألة الضمير الجمعي الفلسطيني بإطاره العام، والذي تغلفه الهوية الوطنية الفلسطينية يأتي في هذه المرحلة ليطرح فكرة المساءلة للهوية كطرح مقاربات بحث عنها، وفيها أكثر مما هي إشكالية دراسية، خاصة أن الحديث عن مكونات وعوامل وانعكاسات شتى فعلت فعلها في هذا المكون الجمعي الذي نسميه "الهوية" أي رؤية الثابت والمتحول فيها. وإن تحدي الهوية ولد من تحدي نفيها، إذ كان الرهان على تشريد الفلسطينيين من وطنهم ورميهم في المنافي سيؤدي إلى ذوبان الشعب الفلسطيني واضمحلال هويته الوطنية، وسيكون لهم أوطان أخرى، لكن هذه الهوية ممثلاً بضميرها الجمعي عادت واستمدت عناصر قوتها من عملية اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه عام ١٩٤٨ في عملية تحدٍّ لإثبات الوجود والذات الوطنية، بل الشخصية الوطنية الفلسطينية، وارتبط ذلك بالإطار الزمني الذي زخرت فيه الإبداعات الثقافية والفكرية والفنية الفلسطينية في مجالات البحث والدراسات والتخطيط والعلم والفن والأدب من الرواية إلى الشعر والقصة والسينما، وقدمت أسماء تجاوزت عتبة القضية الفلسطينية إلى الإنسانية، مثل محمود درويش وتوفيق زياد وغسان كنفاني وإسماعيل شموط وناجي العلي وادوارد سعيد وإميل حبيبي وأنيس الصايغ وغيرهم، وهذه شكلت بمجموعها قاعدة راسخة في بنيان الضمير الجمعي الفلسطيني، لأنها صاغت روافد الثقافة الوطنية الفلسطينية، ودعمت أركان هويتها وغذتها بشعور التميز أمام الآخرين. (مروان عبد العال، ٢٠١٠، (www. safsaf. org/ 08- 2010/ art/ marwan_a_alaal) .

ويمكن الاستدلال على بنية الضمير الجمعي في البناء الاجتماعي الفلسطيني من خلال نظرة متفحصة إلى حركة هذا المجتمع ومكوناته الاجتماعية والثقافية عبر العقود العشرة الماضية، والتي أفرزت تحولات تاريخية أثرت في سياقه، ورسمت ملامح مستقبله، وجعلته يتأرجح بين القوة والوهن، والتماسك والتفكك تبعاً للظروف السياسية التي مرّ بها، ومن اللافت للنظر أن المتتبع لحركة المجتمع الفلسطيني يلاحظ أنه ارتبط في حراكه بإطار جمعي استطاع أن يحافظ عليه أمام الهزات التي كادت تطيح به، ويرتبط هذا البعد

الجمعي بمجموعة من الرؤى التي شكلت مرجعاً للمضمون البنيوي للمجتمع الفلسطيني جعلته حكماً في حالة تباينه، بل توافقه في أحيان كثيرة.

فهذا البعد الثقافي الذي يعبر عن هوية المجتمع وماضيه وحاضره، قد شكل جوهر الضمير الجمعي الفلسطيني، فمن خلال سياقاته، وتحليل مكنوناته سواء في الأدب أم الرواية أم الشعر أم بنية العلاقات التي تشكل عنواناً له، نلاحظ القوة في استدعاء الذاكرة الجمعية في السياق السوسيوثقافي له، فالتهجير وحق العودة، والأقصى ودير ياسين وغيرها من الموروث المادي الذي جعل الضمير الجمعي في حالة وعي دائم، وعلى الرغم من أن هذا الضمير قد ارتهن في بعض الأحيان لتيارات إقليمية متباينة أفقدته توازنه فسرعان ما استعاده بسبب منطقية الفعل وقوة عناصره وأهدافه، لأنه ارتبط بمخرجات مصيرية شكلت قاسماً بين فاعليه.

ونجد دلالات رمزية ثقافية تضمنها الضمير الجمعي الفلسطيني في البعد السيكولوجي للإنسان الفلسطيني عبّر عنه من خلال الرفض للبعدين الزماني والمكاني الذي أورثتهما النكبة إياه، وهذا ما نستدل عليه في رواية رجال في الشمس لمؤلفها غسان كنفاني. حيث يتمحور معرض هذه الرواية حول بعدين رئيسين يتمثل الأول في ظل الصمت المهلك لحالة اللاجئين الفلسطينيين في خزان الماء في صحراء لاهبة الحرارة، وهو يعبّر عن تعبير شديد الموثوقية للتوتر اليومي والمستحيل الذي يرافق ظروف الحياة والعمل لدى الفلسطيني، ويتمثل البعد الثاني في حال الاعتراض والتنبيه لهذا الصمت (http/www.meninsun.com) وهو إشارة لوخز الضمير الجمعي بالنهوض من سباته نحو حالة أكثر وعياً تثير «ضجيجاً مزعجاً»، يسعى من خلاله إلى بقائه وإدامة صراعه مع البعدين الزماني والمكاني الذي وجد فيهما نفسه، وهذا ما نجده في سياق الرواية، حينما يفكر أبو الخيزران في إلقاء جثث الموتى في الصحراء، لكنه يتراجع حتى لا تنهشها الضواري ويقرر أن يلقي بها فوق أول مزبلة يقابلها على الحدود ليسهل اكتشاف الجثث ويتم دفنها، وبعد أن يلقي بهم فوق المزبلة ويسير قليلاً، يعود ليجردهم من الساعات والأموال، وينطلق بسيارته مبتعداً وهو يتساءل بدهشة: لماذا لم تدقوا جدران الخيزران؟ وتردد الصحراء النداء الذي يؤكد سلبيتهم في مواجهة الموت، فهم حتى لم يدقوا جدران الخزان ليتم إنقاذهم، حتى لو سجنوا فهذا أهون من الموت.

ونلاحظ حضوراً واضحاً للضمير الجمعي في التراث الشعبي الفلسطيني الذي يواجه قرصنة إسرائيلية له من خلال سرقة رموزه، ومكونات هويته من لباس ومأكولات شعبية وأغان تراثية، وذلك في محاولة لإيهام العالم بأن «لإسرائيل» جذوراً في المنطقة، ولتعويض الهوية المشوهة والضبابية التي يعانيها القادمون الجدد «الطارئون» إلى

المدن المحتلة عام ١٩٤٨، فهؤلاء حاولوا سرقة الكوفية الفلسطينية التي تمثل دلالة على البعد الجمعي وضميره المتواصل والمقاوم منذ عشرينيات القرن الماضي للفلسطينيين. (www. aklam. net/ forum/ showthread. php) .

وكان للأغنية الفلسطينية نصيبها الوافر في مكونات الضمير الجمعي الفلسطيني، فالميجانا والعتابا وظريف الطول تشكل معاني توقظ في الفلسطيني إعادة التموضع في إطاره وحدوده التاريخية والجغرافية، فالأغنية الشعبية التي تشترك الأجيال في إبداع كلماتها، وصياغة إيقاعاتها لتغدو صورة حية لأشكال الحياة وهمومها تعبّر عن مدى ارتباط الوجدان الجماعي برائحة الأرض والتراب المخضب بدماء الشهداء وعرق الفلاحين. (يحيى جبر، عبير حمد) ، ويعد المثل الشعبي الفلسطيني في الاتجاه الآخر لسان حال الضمير الجمعي الفلسطيني، «والمثل جملة مفيدة موجزة متوارثة من جيل إلى جيل، وهو جملة محكمة البناء بليغة العبارة شائعة الاستعمال عند مختلف الطبقات وهو يلخص قصة عناء سابق وخبرة غابرة اختبرتها الجماعة» (عوض، ٥: ١٩٨٣) . والمثل الشعبي يعبّر أصدق تعبير عن حياة الفلسطيني فوق أرضه الممتدة من البحر إلى النهر، ومن الصحراء إلى الجبل وسط بيئات مختلفة حسب الوضع الجغرافي، فهناك البيئات البحرية والجبلية والصحراوية، لذلك فإن التعدد والتنوع نتاج جغرافيا المكان والتطور التاريخي، مما يؤدي في بعض الأحيان إلى تباين بالمفاهيم من منطقة إلى أخرى، ولا يلغي هذا الاختلاف البسيط وحدة المفاهيم التي قام عليها المثل الشعبي، لأنه المرآة التي ترى ما بداخلها، وتكشف ما حولها وكل ما يمت بصلة إليها (عوض، ٥: ١٩٨٣) .

ونلاحظ أن مدلولات الضمير الجمعي الثقافية تتكامل فيما بينها، فكما الحال في الرواية والأغنية والمثل نستقرئ الشعر في ثنايا هذا الضمير في شعر محمود درويش، وسميح القاسم وغيرهما، الذين يستثيرون نبضه، وحثّه على بقائه في حالة يقظة دائمة، فهذا سميح القاسم يعبّر عن حركة الضمير الجمعي وعنفوانه في قصيدته «تقدموا»، ويلاحظ البعد الجمعي وتحدّيه في سياق فترة زمنية استطاع هذا الضمير أن يشكل محوراً تاريخياً مقاوماً قلّ نظيره في تاريخ المقاومة الفلسطينية، وتمثلت هذه الفترة التي صعد فيها هذا الضمير في سنوات الانتفاضة التي امتدت من أواخر العقد الثامن من القرن العشرين إلى الثلث الأول من العقد التاسع في القرن نفسه.

والتحدّي نفسه يظهره هذا الضمير في رائعة محمود درويش التي ظهرت في فترة تاريخية سابقة للانتفاضة الاولى، وكانت قصيدته «عابرون في كلام عابر» محل فزع المؤسسة السياسية الصهيونية، بشقيها اليميني واليساري، وتوحّد الكنيست الإسرائيلي في مواجهة هذه القصيدة إلى أن وصل الأمر برئيس الوزراء اسحق شامير أن يقرأ مقاطع منها

في برلمانه والتي رأى فيها نهاية وجود كيانه فيه، وأن هناك بعداً جمعياً فلسطينياً في ثنايا هذه القصيدة يؤمن بما أوّله يتمثل في وضع حد زمني لهذا الكيان. (قراقع، ٢٠٠٨) . وكذلك الحال يتضح الضمير الجمعي ذو الانتماء القومي في قصيدته (سجل أنا عربي) . وهي رسالة تحمل في ثناياها بُعد الانتماء والتمترس في إطار جمعي قومي يرتبط بالإعلان الواضح والصريح ل «إسرائيل» بعدم الاندماج أو الذوبان في إطارها السياسي.

ويستمر الضمير الجمعي في نهضته في رسوم الكاريكاتير ودعوته للاستمرار، وقد مثّل هذا الاتجاه رسام الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي، الذي عبّر عن حال لسان الضمير الجمعي العربي والفلسطيني بشخص (حنظلة) الذي مثّل حالة فريدة من الحياة الموجهة نحو الوطن وضميره الجمعي. (الموسوعة الحرة، http: // art. wikipedia. org) ، ونرى الضمير الجمعي في رسوماته موغلاً في الثبات وحب الأرض والشعب، فالوطن فلسطين بالنسبة لناجي العلي هي المحور، وهي الذاكرة والمقاتل والأمل، وفي هذا السياق يعبّر محمود درويش تعبيراً ينصب في الضمير الصادق لكل فلسطيني من خلال ما قدمه ناجي العلي في رسوماته، إذ يقول درويش «لم يكن سهلاً أن تناقش ناجي العلي الذي يقول: لا أفهم هذه المناورات، لا أفهم السياسة، لفلسطين طريق واحد وحيد هو البندقية». (http: // art'wikipedia. org)

ويتجلى الضمير الجمعي في انعكاساته على مجمل الحياة الاجتماعية والثقافية في هذه الفترة والتي تمحورت حول الآثار التي تركها الفعل الجمعي المقاوم (الانتفاضة) على نسق العلاقات الاجتماعية، **ويمكن إيجازها على النحو الآتي**:

١. **التخلي عن بعض العادات والتقاليد السلبية وتعزيز عادات جمعية ثقافية إبداعية جديدة**: ففي حين كان غلاء المهر قيمة في حد ذاته، أصبح التسامح في المهر قيمة جديدة يفتخر بها الناس، وفي حين كانت الثقافة الطبقية حاجزاً أمام الزواج والمصاهرة، فقد تحطمت الحدود الطبقية، وأصبح المعيار الوطني المستند إلى المشاركة في الانتفاضة والتحلي بالنزاهة والمصداقية هو الأساس.

٢. **ظهور رموز فكرية جديدة في الفكر والممارسة**: إن أكثر ما يلفت النظر في الفعل الجمعي الانتفاضي هو بروز رموز مركزية تراها الأعين يومياً وتنقلها وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وفي مقدمتها العلم الفلسطيني والحطة (الكوفية) الفلسطينية المرقطة واللثام وإشارات النصر والمقلاع والحجر. (جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٠: ٢٧٩- ٢٨٠)

٣. **الإبداعية الجمعية**: ذلك أن الفعل المقاوم في هذه الفترة اتسم بالإبداع الجماعي والديناميكي المتجدد، المتعدد في صيغه والمتفاوت في مستوياته، فإبداع الفكرة يتمثل في

وجود رؤية شمولية أتاحت المجال لسيطرة فكرية على الواقع القائم وإعادة تنظيم علاقاته، وهناك إبداع في الفعل طور أدوات وأساليب مقاومة جديدة، وهناك إبداع الآلية، ويتمثل في استثمار القوى والقدرات الذاتية الممكنة وتطويرها بصورة خلاّقة، وأخيراً هناك إبداع القيمة، ويتمثل في توجيه الفعل المؤثر نحو انجازات ذات قيمة مجتمعية حالية ومستقبلية (ساري، ٢٥: ١٩٩٠).

إذاً من خلال ما سبق نلاحظ أن الضمير الجمعي الفلسطيني في البعد الروائي والشعري وكافة ضروب الفن الأدبي الفلسطيني قد شكل قاعدة ثابتة للفعل الفلسطيني اتفق عليه الفلسطينيون، وكان بحجم التحدي، ومثّل حضوراً أعجب الأصدقاء وأربك الأعداء. فهل هذا حال الضمير الجمعي الفلسطيني في النسق السياسي.

تداعيات الضمير الجمعي الفلسطيني السياسية:

في عام ١٩٤٨ خرج معظم الشعب الفلسطيني حاملين معهم خصائصهم الاجتماعية والمجتمعية الأصيلة، فقد كان لدى سكان كل مدينة أو قرية أو خربة عادات ومهارات وتقاليد في الأفراح والأتراح والأعياد والملابس والعلاقات الاجتماعية، وعادات إنتاجية ومعيشية، ولهجة أو لكنة خاصة تميزهم في إطار الثقافة الشعبية الفلسطينية العامة التي تميز الشعب الفلسطيني، ولقوة الروابط الاجتماعية والدرجة العالية من التماسك الاجتماعي، ونمط التكافل الأسري الراقي ولرسوخ كثير من القيم الدينية والاجتماعية لدى الأسر المهجرة، فقد حرصت النسبة العظمى من الشعب على إعادة بناء الكيانات الاجتماعية التي نشأوا وسطها لقرون ماضية في المدن والقرى والأودية والجبال والسواحل ويعيدون بناءها في المواقع التي انتهى بهم مشوار اللجوء للاستقرار فيها، وعلى صورة مجتمعاتهم الأصلية، فتجمع أهل كل قرية أو مدينة أو حي بطريقة تلقائية في موقع واحد في حدود الممكن والمتاح، وذلك سعياً لتحقيق أعلى درجة من التجانس الاجتماعي والمجتمعي والثقافي ليكونوا بذلك ضميراً جمعياً معبراً عن لسان حالهم في المواقع والمواقف الاجتماعية. (المزعنن، ٣: ٢٠١٠).

ونتيجة لموجات الهجرة القسرية التي عانى منها المجتمع الفلسطيني إثر قيام الكيان الصهيوني على الأرض الفلسطينية، فقد نشأ نوع من الحراك الاجتماعي الذي نتج عنه واحد من أشد التراكيب السكانية تعقيداً، أطلق عليه اسم المخيم، حيث ضم هذا المخيم خليطاً من الفلسطينيين المتباينين سياسياً واقتصادياً والمنتمين إلى أصول ومنابت عائلية واجتماعية متباينة، والقادمين من أماكن جغرافية مختلفة، قرية ومدينة ومناطق ساحلية وصحراوية وجبلية، وعلى الرغم من هذا التباين الذي يباعد بين الفقير والغني

والوضيع والرفيع والجاهل والعالم فإنّ عيونهم ظلت معلقة نحو مفاتيح البيت الذي حملوه ليصبح جزءاً من الميثولوجيا الفلسطينية التي طوَّرت في التراث الثقافي الفلسطيني نوعاً من التلاقح الثقافي بين الواقعية التي يفرضها واقع الحال المعاش، وبين َحلمْ العودة الذي حوّل المفاتيح الصدئة إلى طواطم التصق بها الفلسطينيون جيلاً بعد جيل.

ومن قلب هذا النسيج الاجتماعي وليد المعاناة والهجرة والفقر الذي انصهر في إطار المخيم، بزغ فجر حركة التحرر الوطني الفلسطيني بمختلف فصائلها التي تباينت أيضاً ليس بسبب البناء الاجتماعي لهذا المخيم فحسب، إنما تعددت واختلفت بمقدار التباينات الفكرية التي زخرت بها الساحة الفكرية وحجمها دولياً وإقليمياً في منتصف سني القرن العشرين، ففي سنوات القرن السابق هبّت على فلسطين كما الوطن العربي رياح الثورة البلشفية وفكرها الشيوعي، فتأسست الأحزاب الشيوعية، وشهدت المنطقة أيضاً تعاظم القوى القومية العربية التي توّجها انتصار الناصرية في مصر، وقيام ثورة عبد الناصر بدعم من الحركات القومية في كل الأقطار العربية كردة فعل على الأنظمة الموالية للاستعمار، وقبل ذلك ظهرت حركة الأخوان المسلمون التي دعت إلى إقامة نظام إسلامي على نهج الخلافة كسبيل وحيد لمواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي، ومن كل هذا الخليط الفكري والسياسي الديمغرافي والثقافي المغلف بالمعاناة والقهر، ظهرت الثورة الفلسطينية في أواسط السيتينيات من القرن الماضي لتحمل في طياتها كل ألوان طيف هذه التناقضات التي اعتبرتها ثانوية في مواجهة التناقض الأساس مع العدو الصهيوني رافعة شعارها الرئيس والأهم «العودة طريق الوحدة».

وقد ظل هاجس العودة يشكل المسار الذي جمع الفلسطينيين في إطار جمعي جعله محل تقدير العناصر المشكلة للضمير الجمعي الفلسطيني، وهذا ما نراه في كتابات (غلين باومن) إذ يقول تفحصت خطاب الهوية لدى الفلسطينيين في مخيمات اللجوء في لبنان، وفي انتلجنسيا الدياسبورا (المنفى) الفلسطينية في بلاد الغرب، وكذلك لدى الناس في الداخل، قصد تقويم الطرق المختلفة التي شكلت بها ثلاث جماعات مختلفة من الفلسطينيين هويتها، وقد تبين لي أنه في الحالات الثلاث كان يجري تصور العودة إلى فلسطين كلحظة يمكن خلالها تحقيق هويات أعاقتها أشكال متنوعة من القمع والاضطهاد، وليس هذا بالأمر المستهجن، فالعودة هاجس في الضمير الجمعي الفلسطيني لأجله قاوم الفلسطينيون كل إغراءات الدمج والتدجين، وأصروا ولا يزالون على اعتبار وضعهم الحالي مصنعاً مؤقتاً، فقد قاوم فلسطينيو المخيمات كل المحاولات التي تهدف إلى جعلهم حالة إنسانية، مجرد لاجئين. (حبيب، ٢٠٠٦).

وهذا يؤكد أن وطن اللاجيء الفلسطيني ما زال في ذاكرته ووجدانه، وأن الظروف المكانية والزمانية وعدم توازن القوى في العالم لم تكن قادرة على استدخال الهزيمة في نفس اللاجيء، بل على العكس من ذلك فقد شكّل اللاجئون رأس الحربة في الثورة الفلسطينية المعاصرة التي انطلقت في عام ١٩٦٥، وكان المخيم حاضناً لها وحامياً، ودفع اللاجئون ثمناً باهظاً في مخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة ولبنان وسوريا والأردن، وما يزالون متمسكين بثوابتهم التي حموها بدمائهم الطاهرة منذ أكثر من ستين عاماً.

وفي الغرب، وعلى الرغم أنهم يحملون جنسيات الدول التي تأويهم، فما زالوا يعتبرون أنفسهم فلسطينيين قلباً وقالباً، وفلسطينيو الداخل، الذين حملوا الجنسية الإسرائيلية مرغمين، يعبرون عن رفضهم للأمر الواقع بالإصرار على رفض التسميات التي أطلقها العبرانيون على الأمكنة، ويصرون على تداول أسمائها العربية التي كانت لها منذ القدم، ويحرصون كل الحرص على بقائها حيّة في نفوس أبنائهم، وحتى بعد اتفاق أوسلو، فإن الفلسطينيين ما زالوا مقتنعين في صميم قلوبهم أن الأرض كلها لهم، فَهم وإن أبدوا القابلية والرغبة الصادقة للفصل بين ما يكنّه القلب وما تسمح به السياسة على أرض الواقع ضمن قبيل إيمانهم بأنهم في النهاية «أم الصبي» مستعدون للمشاركة بالأرض خوف ضياعها كلها، بل إن العودة في الذاكرة الجمعية للفلسطينيين مفهوم مقدس متغلغل ليس في الخطاب السياسي والأدبي فحسب، بل في صلب الخطاب الشعبي، فقد استبدل الفلسطينيون كثيراً من التعابير اليومية التي تقال في المناسبات الاجتماعية بتعابير تحمل معنى العودة كمثل البلاد، النصر، عيدنا يوم عودتنا. (حبيب، ٢٠٠٦: ٢) . وبالرغم من أن العودة تشكل قاعدة الضمير الجمعي الفلسطيني، فإنّ التباينات الايدولوجية للفلسطينيين قد أثرت في مراحل زمنية على تماسك هذا الضمير وقوته.

ويجمع الباحثون في الحقل الاجتماعي السياسي على أن الايدولوجية السياسية تعدُّ مرآة للبيئة السياسية التي يعيش فيها أي مجتمع، وهي تتغير مع المتغيرات والأحداث التي يمر بها المجتمع، أي أنها متغيرة وغير ثابتة، ولا شك أن الأيدولوجية الفلسطينية ليست بمنأى عن هذا الإطار، حيث يزخر المجتمع الفلسطيني بالتنظيمات والأطر السياسية التي تختلف في رؤيتها للصراع العربي الإسرائيلي، فهناك تنظيمات تطالب بتحرير كامل أرض فلسطين التاريخية، وهناك حركات سياسية تبنت الكفاح المسلح ونادت بالحل المرحلي، وطالبت بعض الأطر الأخرى بإقامة دولة فلسطين على جزء من أراضي فلسطين التاريخية، وتمثلت في المناطق التي احتلت في حزيران عام ١٩٦٧.

وشكلت الاختلافات الفكرية للتنظيمات الفلسطينية في المجتمع الفلسطيني صراعاً بينها في مراحل مختلفة أخذت طابعاً دموياً مما جعل الضمير الجمعي الفلسطيني يتهاوى

في حالات من الوهن والضعف، سرعان ما يعيد عافيته وتضميد جراحه إلى أن جاءت الانتخابات الفلسطينية عام ٢٠٠٦، ليشكل هذا العام مقدمة دموية تهاوى فيها الضمير الجمعي الفلسطيني وترنح أمام تداعيات النتائج التي أفرزتها هذه الانتخابات والتي مكنت حركة المقاومة الإسلامية (حماس) من تشكيل الأغلبية في المجلس التشريعي، وهزيمة حركة فتح فيها، واستحقاق دستوري لازم حماس بتشكيل الحكومة، ونتيجة الاحتقان السياسي الذي ولدته هذه الانتخابات، وقع الفلسطينيون جميعاً في المحظور. ففي حزيران عام ٢٠٠٧م، سيطرت حماس على قطاع غزة، وشكل ذلك الانقسام في البنية الاجتماعية ضربة قاسمة لبنية الضمير الجمعي الذي طالما نادى بأن الوطن هو النص الجمعي الأسمى، وارتهن الضمير الجمعي نتيجة هذا الانقسام إلى تجاذبات لتيارات إقليمية متباينة أفقدته توازنه، ولولا سطوة هذا الضمير وارتباطاته التاريخية التي حافظت على كينونة القضية لأودت به إلى الهلاك.

إن هذا الانقسام قد أثّر في مجمل التفاعلات الاجتماعية للبناء الاجتماعي، ولم يقتصر تأثيره في الصفوة السياسية الفلسطينية، بل تعدى ذلك إلى العلاقات الاجتماعية في النسق الاجتماعي الفلسطيني، فقد أشارت الوقائع إلى أن الانقسام قد أدى إلى ارتفاع نسبة الطلاق في الأعوام الثلاثة الأخيرة، وخاصة في قطاع غزة، وكان من بين أسباب الطلاق الخلافات الحزبية بين الزوجين، أو بين أحد الزوجين وأسرة الآخر(الحياة، ٢١ فبراير ٢٠١٠) .

وتؤكد الدراسات الميدانية التي أجريت داخل النسق الاجتماعي في غزة، أن الانقسام قد أثّر على العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة، فعلاقة الأشقاء أصبح يحكمها الانتماء الحزبي وهو الفيصل فيها، كما أن الانقسام قد أثّر في علاقة الآباء والأبناء، فالآباء جحدوا أبناءهم، والأبناء فقدوا احترامهم لآبائهم، كما أحدث الانقسام فجوات وشروخاً في علاقات الجيران والأقارب، وعلاقات زملاء العمل لينشر أجواء من التوتر في كل مكان. (عبيد، والبلبيسي، http: // palwriters. net) .

كما طال الانقسام طلبة المدارس والجامعات، ومن المعروف أن المدرسة هي البيئة الثانية التي يواجه فيها الفرد نموه وإعداده للحياة المستقبلية، ويأتي دورها بعد دور الأسرة حيث إن دورها لا يكتمل إلاّ بما تضيفه المدرسة من مبادئ، تسهم في تشكيل شخصية الفرد، وذلك بما تحتوي عليه من المناهج، وما يدرسون من مواد، وعن طريقها يستكمل المواطن ما بدأته الأسرة من تربية وتعليم، وهكذا تؤدي المدرسة في الإعداد السياسي للنشء دوراً مكملاً للأسرة، ولكن واقع الحال، وتأثر المدرسة والجامعة بالانقسام الفلسطيني يؤكد أن هذه المؤسسات لم تكن محصنة كما يجب، بل كانت سهلة الاختراق، وسهلة التأثير فيها وإقحامها في غياهب الصراعات الداخلية. (البطنيجي، www. swmsa. com) إذ إن غالبية

من شارك في الاقتتال الداخلي هم من جيل المراهقين والشباب الذين تراوحت أعمارهم ما بين ١٥– ٢٥ سنة، فقتل من قُتل وجرح من جُرح، واستبعد بعضهم الآخر عن مكان سكنه.

لا شك في أن الضمير الجمعي الفلسطيني قد صمد صموداً بطولياً في وجه أعتى قوة في العالم، وقدم تضحيات وبطولات من أجل الوطن، وفي سبيل الله جل جلاله، ولا يخامرنا شك في نبل هذا الضمير وتضحياته وبطولاته في مواجهة التحدي الصهيوني، ولكن ما يثير الاستغراب هو ضعفه في مواجهة الأخطار الداخلية ومواجهة الذات، والعمل على نقدها، وكشف عيوبها ومثالبها، فهذا التحدي الخارجي لم تقابله بنى داخلية قوية رصينة توازيه في المقدار، بل ضعف داخلي مشين وعجز فاضح على مجابهة الأخطار الداخلية، فهذا الضمير في أمّس الحاجة إلى امتلاك ثقافة النقد الذاتي وإلى الحرية الفكرية والجريئة، وإن اخمادنا للنقد الذاتي وحرية الفكر يعني قتلاً للعقل وتعطيل ثقافة النقد الذاتي، وهي بداية الطريق إلى الانحدار والدائم والتخلف السياسي الاجتماعي، فصعود الضمير الجمعي مرتبط بامتلاكه حرية التفكير، والعقل والنقد الذاتي الذي يعدُّ جزءاً أساسياً من عملية التطوير والتقويم المستمر، وترشيد السلوك (البطنيجي، www. swmsa. com) ومن خلال رؤية تشخيصية للضمير الجمعي الفلسطيني في حالته السياسية يمتلك بنية عصبوية لم تتطور بشكل يؤهلها لأن تكون ضاغطة على النخب السياسية، وإن الضمير الجمعي الفلسطيني في حالته هذه مليء بالمشكلات التي تراكمت تاريخياً، وأحدثت تفككاً وترهلاً في المجتمع والنظام السياسي معاً معطوفاً على انهيار أخلاقي وقيمي، فعندما يجرؤ فلسطيني على قتل أخيه الفلسطيني فنحن أمام انهيار أخلاقي وقيمي وليس انهياراً سياسياً فقط، لأن ذلك نال من نظام القيم في المجتمع الفلسطيني، وإن اهتزاز الثوابت الأخلاقية التي تمثل المرجعية العليا وضمير الجماعة ومعايير السلوك التي تحدد ما يجب أن يكون عليه هذا الأخير، فهذا مؤشر على عقم المؤسسات التي نشأ فيها هذا الضمير واهترائها (البطنيجي، www. swmsa. com)

الخلاصة:

«**الشعب يريد إنهاء الانقسام**» شعار طالما نبض به الضمير الجمعي الفلسطيني في ظل مرحلة الوهن التي يعاني منها، ففي ظل الثورات الشعبية التي يشهدها العالم العربي، نلاحظ أن هناك حالة يقظة لهذا الضمير الذي يحاول أن يتجاوز معطيات المرحلة الراهنة، ويفرض حضوره على الصفوة السياسية في شقي الوطن الفلسطيني، كي يؤكد على الثوابت التي تقولب حولها وانطلق منها، ولعل قوة هذا الضمير ومضامينه ترتبط بشكل جلي بالقاسم المشترك الوحيد، وهو فلسطين الوطن بأبعاده الثقافية والسياسية والتاريخية.

ومن خلال عملية استطلاعية متمعنة في ثنايا هذه الدراسة يمكن للقارىء أن يخرج بالمعطيات والنتائج الآتية:

١. البعد الثقافي الذي يعبر عن هوية المجتمع وماضيه وحاضره، شكّل جوهر الضمير الجمعي الفلسطيني.

٢. جاءت هذه الدراسة لترصد تاريخاً اجتماعياً للحالة الفلسطينية في ظل حالة الانقسام التي يعاني منها المجتمع الفلسطيني، وهذا ما جعل الضمير الجمعي يتصف بالسكون في هذه المرحلة.

٣. إن حالة الوهن والضعف للضمير الجمعي التي يعاني منها إنما جاء لارتهانه لتيارات اقليمية ودولية متباينة أفقدته توازنه.

٤. يتجلى الضمير الجمعي الفلسطيني بقوته وعنفوانه وشموخه في حال المقاومة والتشبث بالقواسم المشتركة التي يجمع عليها افراد البناء الاجتماعي كافة، كحق العودة واطلاق سراح الأسرى، وإقامة الدولة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

٥. سطوة الضمير الجمعي الفلسطيني وارتباطاته الشرعية هي التي حافظت على كينونة القضية الفلسطينية، بالرغم من الاعتلالات المتتالية التي أصابته في مراحل تاريخية مختلفة كادت تودي به إلى الهلاك.

٦. إن حالة الانقسام جعلت الاحتلال يعمل على كسر الارادة الجمعية وفرض خياراته وتصوراته على الشعب بمجمله.

المصادر والمراجع:

١. مصباح عامر، علم الاجتماع، الرواد والنظريات، دار الأمة، سنة ٢٠٠٩.

٢. محمد لمباشري، دوركايم والتمثلات الجمعية: مقاربة نفسية اجتماعية تربوية.

http: // lambachri. eb. 2a. com

٣. طال بن تسفي، مقال حول رجال في الشمس،

http: // www. men_in_the_sun. com

٤. عوض مسعود عوض، دراسات في الفلكلور الفلسطيني، دمشق: دائرة الاعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٣.

٥. يحي جبر وعبير حمد، التراث الشعبي الفلسطيني، http: // scholar. Najah. edu

٦. أقلام ثقافية، الاسرائيليون يريدون سرقة الكوفية الفلسطينية،

http: // www. aklaam. net/ forum/ showthread. php

٧. سالم ساري، الابداعية الجمعية: دراسة في الانتفاضة الفلسطينية، المستقبل العربي، العدد ١٤٢، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠.

٨. نجمة حبيب، طقوس العودة في المتخيل الروائي، الشبكة العنكبوتية

www. diwanalarab. com

٩. عيسى قراقع، قصيدة درويش التي وحدت الكنيست الاسرائيلي، وكالة معاً، ١٧.٨.٢٠٠٨.

http: // art. wikipedia. org

١٠. جامعة القدس المفتوحة، المجتمع المحلي الفلسطيني، ٢٠٠٠.

١١. أحمد محمد المزعنن، جدلية السوسيولوجيا في المجتمع الفلسطيني، الفجر نيوز، ٢٠١٠.

١٢. صحيفة الحياة، ٢١ فبراير ٢٠١٠.

١٣. سهاد عبيد وماجدة البليسي، أثر الانقسام الداخلي على العلاقات الاسرية والاجتماعية في قطاع غزة http: // palwriters. net

١٤. عياد البطنيجي، الانقسام الفلسطيني انقسام سياسي أم اجتماعي، مجلة العلوم الاجتماعية www. swmsa. com

١٥. نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، ط. ٥، ترجمة محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨، وانظر النسخة الأصلية:

١٦. Nicholas S. Timasheff, sociological theory, its Nature and Growth, Third .edition, Newyork, Random house, 1967

١٧. Cooley, chales, IT. Social organization, NewYork, Scribner, 1968.

١٨. محمد الجوهري وآخرون، علم الاجتماع الريفي والحضري، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤.